السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلامية

الفصل 2 | نقل التراث العلميّ اليونانيّ إلى العربيّة وترجمتُه

المقال 12 | لماذا تُرجم كتاب إقليدس ثلاث مرّات؟

خمس نسخٍ لكتابٍ واحد: حين يكون التكرار علامة حياة

لو أخبرك أحدهم أنّ عملًا واحدًا تُرجم إلى العربيّة ثلاث مرّاتٍ مختلفة، لعلّ أوّل ما يخطر ببالك: أَلَم يكن يكفي أن يترجمه أحدهم مرّةً واحدة بإتقان؟ لكنّ هذا بعينه ما جرى لأهمّ كتابين في تاريخ العلوم القديمة: «الأصول» لإقليدس، أساس الهندسة إلى اليوم، و«المجسطي» لبطليموس، أساس علم الفلك القديم. وكما تبيّن المصادر التاريخيّة بدقّة، لم يكن هذا التكرار إهدارًا للجهد، بل كان، على النقيض تمامًا، علامةً صحّيّة على حيويّة العلم نفسه.

خمس نسخٍ لكتابٍ واحد

يوثّق العالِم ابن الصلاح، من القرن السادس الهجريّ (الثاني عشر الميلاديّ)، شهادةً نادرة دقيقة عن كتاب «المجسطي» بعينه، إذ يذكر أنّه اطّلع بنفسه على خمس نسخٍ مختلفة منه: نسخةٌ سريانيّة منقولة عن اليونانيّة، ونسخةٌ ثانية ترجمها الحسن بن قريش للخليفة المأمون، ونسخةٌ ثالثة ترجمها الحجّاج بن يوسف بن مطر وحلْيا بن سرجون، أيضًا للمأمون، ونسخةٌ رابعة لإسحاق بن حنين، ونسخةٌ خامسة هي إصلاح ثابت بن قرّة للترجمة السابقة. خمس نسخٍ لكتابٍ علميّ واحد، في زمنٍ لمّا تُخترَع فيه الطباعة بعد، وكانت كلّ نسخةٍ تُكتب بخطّ اليد بجهدٍ ووقتٍ جسيمَين.

حين ينتقد مترجمٌ ترجمة زميله، جملةً بجملة

ولدينا على هذا القصور مثالٌ ملموس من الكنديّ نفسه: فقد كتب رسالةً ينتقد فيها بالتفصيل ترجمةً عربيّةً سابقة لفقرةٍ من «المجسطي»، يصف فيها بطليموس أداةً فلكيّة، ويقارنها جملةً بجملة بترجمةٍ أخرى أفضل. فمن أخطاء الترجمة الأولى، كما يحصيها الكنديّ بنفسه، أنّ أحد مترجميها نقل الفعل اليونانيّ الذي يفيد معنى «أن يُتصوَّر» بفعلٍ عربيّ ركيك هو «جَعَلَ»، واستعمل كلمة «علامة» ترجمةً للمصطلح اليونانيّ الذي يعني «نقطة» — وهو الاستعمال عينه الذي رأيناه في مقالٍ سابق من هذه السلسلة في ترجمة كتاب المرايا المحرقة. أمّا الترجمة الثانية للفقرة نفسها، فجاءت، بشهادة الكنديّ، أدقّ تركيبًا نحويًّا وأقرب إلى لغة الفلك والهندسة العربيّة. وفي هذا المثال كشفٌ عن أنّ تطوّر المصطلح العلميّ العربيّ نفسه، لا مجرّد تفاوت مهارة المترجمين، هو ما كان يدفع إلى إعادة الترجمة.

لماذا لم تكفِ ترجمةٌ واحدة؟

والجواب كامنٌ في طبيعة الترجمة العلميّة نفسها في تلك الحقبة. فالترجمات الأولى كانت غالبًا حرفيّةً قاصرة، إذ لم يكن المترجمون الأوّلون قد طوّروا بعدُ المصطلحات العلميّة العربيّة الدقيقة اللازمة للتعبير عن مفاهيم رياضيّة وفلكيّة معقَّدة. ثمّ، مع تقدّم البحث العلميّ نفسه، انكشفت أخطاءٌ أو نواقص في الترجمات القديمة، فاحتاج العلماء إلى نسخٍ منقَّحةٍ أدقّ. وكان كلّ جيلٍ جديد من العلماء يقرأ الكتاب بعينٍ مختلفة، يحمل أسئلةً بحثيّةً جديدة، فتجيء ترجمته صدًى لتلك الأسئلة، لا مجرّد نسخةٍ طبق الأصل عن سابقتها.

المراجعة: نشاطٌ علميّ بحدّ ذاته

واللافت أنّ الأمر لم يقف عند إعادة الترجمة، بل امتدّ إلى مراجعة الترجمات القديمة وتصحيحها: فقد راجع الكنديّ بعض ترجمات قُسطا بن لوقا، وراجع ثابت بن قرّة بدوره ترجمة إسحاق بن حنين لكتاب «المجسطي» نفسه، وذلك ما يفسِّر وجود «النسخة الخامسة» في شهادة ابن الصلاح. فالترجمة لم تكن حدثًا واحدًا ينقضي بمجرّد إنجازه، بل عمليّةً مستمرّةً من التحسين والتنقيح.

مقياسٌ صحّيّ، لا إهدارٌللجهد

فحين يتكرّر الاهتمام بترجمة كتابٍ علميّ واحد على مدى عقود، على أيدي علماء مختلفين في أزمنةٍ متعاقبة، فذلك يعني أنّ هذا الكتاب كان حيًّا في النقاش العلميّ المستمرّ، لا نصًّا تاريخيًّا يُقرأ مرّةً ثمّ يُنسى على الرفّ. بل يذهب رشدي راشد إلى أنّ إعادة الترجمة والمراجعة غدتا معًا سِمتين مميّزتين لحركة نقل التراث اليونانيّ إلى العربيّة ككلّ، لا استثناءً نادرًا وقع مع كتابٍ أو كتابين.

الدرس الأعمق

وها هنا نبلغ جوهر الأمر: فالترجمة والبحث لم يكونا، كما رأينا في مقالاتٍ سابقة من هذه السلسلة، مرحلتين منفصلتين، بل نشاطًا واحدًا متجدّدًا. فكلّ جيلٍ من الباحثين، إذ يتقدّم في أبحاثه، كان يكتشف أنّ الترجمة القديمة لم تعد تفي بحاجاته الجديدة، فيبادر إلى ترجمةٍ جديدة أو مراجعة، لا لأنّ السابقين قصّروا، بل لأنّ العلم نفسه خطا خطوةً إلى الأمام، فاحتاج أدواتٍ لغويّةً ومفهوميّةً أدقّ. فالتكرار هاهنا لم يكن علامةً على القصور، بل كان أوضح دليلٍ ممكن على أنّ هذه الكتب ظلّت في قلب النشاط العلميّ الحيّ، جيلًا بعد جيل.

المصدر: مقتبسٌ ومُعَدٌّ عن فصل «نقل التراث العلميّ اليونانيّ إلى العربيّة وترجمتُه»، بقلم رشدي راشد، ضمن المجلد الثالث من موسوعة «تاريخ العلم» (الموسوعة الإيطاليّة لتاريخ العلوم الإسلاميّة)، الصادرة عن معهد الموسوعة الإيطاليّة (تريكاني)، سنة 2002، بإشراف رشدي راشد، ص 1-36. وهو جزء من الموسوعة التي تُعِدّ دار الرّيّان للنشر حاليًّا لترجمتها ونشرها بالعربيّة كاملة.